

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

الشعر والمادة

إن بين كثير من الأمور النفسية والمادية ، وبين كثير من الماديات تقابلاً ، حتى يخيل إليك أن الأشياء النفسية والمادية كأنها ماديات تحولت أشياء معنوية ، أو كأن الماديات أشياء معنوية استعالت جمادات

من ذلك أن بين الشعر والمادة تطابقاً من حيث أن لكل منهما « ماهية » لم يتوصل العلماء إلى معرفتها في المادة ، ولم يتوصل الأدباء والنقاد إلى معرفتها في الشعر . فإذا قيل مثلاً إن الأشياء الظاهرة في المادة إنما هي أعراض ينبئ أن يحملها جوهر فيه تكن الماهية ، فكذلك استطاع أن يقال في الشعر إن كل الصفات التي يقول الأدباء والنقاد إن من الواجب أن تتوفر في الشعر حتى يحكم عليه بأنه جيد ، إنما هي أعراض يحملها جوهر فيه تكن ماهية الشعر

فإذا كان اللون والحجم والوزن والطول والمرض والثقل وما إلى ذلك جميعاً أعراض ينبئ لكي تظهر لحواسنا أن تكون محمولة في جوهر ذي ماهية خاصة ؛ وإذا كان الوزن والثقافة واللفظ والصناعة والمعنى والخيال وما إلى ذلك جميعاً أعراض يحملها جوهر ، ما تلك إلا تعبيرات عنه ودلالات عليه ، إذن فأي المادة وأين الشعر ؟

أليس في مثل هذا التقابل بين الماديات والماديات النفسية ، مواضع للتأمل ومواطن للاستبصار ؟

شاعرية الألفاظ

ما أقوى العلاقة القائمة بين الشعر وبين الحالات النفسية ، وعندى أن التأثير النفسي بالشعر أقوى الأسباب التي تدعونا إلى نقد الشعر . ذلك بأن المايير النقدية التي يخضع الشعر لسلطانها ، على اختلافها وتباينها ، تتضاءل جميعاً إذا قيست بالمعيار النفسي .

على أن المعيار النفسي في نقد الشعر عوامل كثيرة ، منها الموسيقى المستمدة من القافية والروي ، ومنها قوة الخيال ، ومنها الاتجاه القدي يتوجه فيه الشعر إلى غير ذلك ، وجميعها عوامل تؤثر في المعيار النفسي في نقد الشعر . غير أن أقوى هذه العوامل تأثيراً بمعيار النقد النفسي للشعر ، إنما ينحصر في شاعرية الألفاظ

فقد نسمع من كثير من النقاد أن هذا الشاعر بارد الأنفاس ، وأن ذلك غير ماهر في اختيار الألفاظ ، من غير أن نحدد المعنى المقصود من أمثال تلك العبارات تحديداً يرضاه المنطق وتقره طبيعة العقل ، إذ هي تربي دائماً إلى تحديد معنى لكل لفظ مفرد ، وإلى تحديد معنى لكل عبارة تكونت من ألفاظ . فإذا أردنا أن نحدد ما يقصد من عبارات تجرى بها في المادة أقلام النقاد والكتاب ، وجب أن نرجع بها إلى أصولها النفسية ، حتى نستطيع أن نفسرها تفسيراً منطقياً يقبله العقل وتقره ما فينا من طبيعة الليل إلى تحديد كل المعاني التي تتخذ الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التعبير عنها

والواقع إننا نقول إن شاعراً بارداً الأنفاس ، وإن آخر غير ماهر في اختيار الألفاظ ، إنما نعبر بهذا عن حقائق نفسية ، ننزل من أنفسنا منزلة أبعد الأشياء اندساساً في أغوار الفطرة . فقد نعلم أن من الحقائق النفسية ما دعاه النفسيون : « تداعى الأفكار » . فإن اللفظ الجميل المعنى يدعو إلى الفكر دائماً كل المعاني الجميلة التي تلابسه أو تقاربه ، ولفظاً قبيحاً أو محزناً يدعو إلى الفكر كل المعاني التي تدانيه أو تمت إليه بسبب من الأسباب . مثل ذلك إذا قلت : « الشاطئ المحضوضر » دعت هذه العبارة إلى ذهنك كل المعاني الجميلة التي تلابسها . فالنهر النسب والماء الصافي والظل الوارف وصوابع الطير والرضا النفسي والأخذه الروحية ، كل هذه المعاني تواتيك غير غثار لمجرد أن العبارة الأولى قد حملها وعبك فدعا معها جميع المعاني التي ترتبط بها وجميع الملابس المرحلة الجميلة التي تلازم الشاطئ المحضوضر . وإذا قلت القبر الصامت — أو — « الصحراء المجدبة » دعت هذه العبارة إلى وعيك جميع المعاني المحزنة التي تلابس القبر والصحراء المحزنة المساء . هذه الحقيقة النفسية لها في نقد الشعر أعظم الأثر . فإن لفظاً جميل المعنى حسن الملابس يدعو إلى الدهن شتى المعاني الأخاذة

الجذابة ، إن ورد في سياق الشعر أحدث في النفس شموراً بالرضى والجمال وزاد إلى موسيقى الشعر القاعة على جمال الوزن والقافية ، موسيقى نفسية تزيد الشعر تأثيراً في النفس ، وتفتق الخيال ، فيشرف الوعي من خلال ذلك اللفظ على آفاق من الجمال اللامتناهي تزيد من قيمة الشعر بقدر ما يكون لألفاظه من أثر في استدعاء ألوان الجمال أو التأمل أو السعة أو الحكمة إلى غير ذلك . وعكس هذا تماماً ما يحده لفظ ردىء الملايسات فاسد المنى . وهذا ولا شك ما يقصد النقاد إذ يقولون بأن الألفاظ شاعرية . على أن شاعرية الألفاظ إنما يحددها دائماً استعمال اللفظ في حيث ينبغي أن يستعمل فيكون مطابقاً دائماً لمقتضى الحال .

الشرق والثورة

حدثني صديق ممن تجمنى به ذكريات عزيزة : ذكريات الثورة المصرية ، عند ما كانت أنفاسنا حارة كاللهب المضطرب ، وكانت أرواحنا مشبوبة كاللظى المتأجج . لهيب الشباب ولظى الفتوة . لم يكن عهد الكهولة قد أصاب شيئاً من تأملنا أو حفزنا بعد إلى اللجوء إلى قواعد المرجحات العقلية التي هي عندنا اليوم أشبه شيء بقانون المرجحات الرياضية ، فاما أن نرضيها واما أن ننتقد اننا على غير صواب ، وإننا إلى الشطط أقرب . حدثني ذلك الصديق عن الشباب وعن أيام الجهاد المستمر والسعى المتجدد في سبيل إذكاء روح الثورة في نفس الجماهير ، وذكرني بما كان لنا من مواقف نوجب الآن كيف خرجنا منها وفيما نفس يردد أو عرق يبيض . كيف لم يحصدا الرصاص . وكيف لم تسلم أنفسنا على شفرات السيوف ؟ كيف هزأنا بالموت غير مقدرين أن الموت كان أقرب إلينا من جبل الوريد أشهراً طوالاً بل أعواماً ، وكيف خلصنا من جميع هذا بأرواحنا سليمة وجسومنا لم يصبها كرم واحد ! قلت له في خلال الحديث ما أشهى تلك الأيام ! فان للمخاطرة بالروح لجمالاً لا يدركه الانسان إلا بعد أن يفوز بالسلامة . ذلك جمال أشبه بجمال الفقر الذي لا يدركه الانسان إلا بعد أن يلوذ بالفنى . ولعل الأمر على عكس ما يخيّل إلينا ؛ ولعل الواقع أن المخاطرة والنقد ليس فيهما من جمال ، وأن ما نستشعر من جمال فيهما بعد الفرار من آصارهما قد يكون جمال الذكريات الماضية إذ تجمي في النفس جزءاً من ماضيها ، وتطبعها بطابع قديم كاد يلبى على الأيام .

قلت لصديق من لنا يمثل تلك الأيام ؟ قال الصديق : نعم نحن في احتياج إلى ثورة . إلى ثورة طاحنة تمضى بكل ما يقف في طريقها ، وتأتى على كل ما يقاومها ؛ ثورة شيطانية لا عقل فيها ؛ ثورة مبرأة من الرشاد والحب والنمى . ثورة طائشة مجتاحة تأكل الحارث والنسل ؛ ولكنها ثورة لا تنال من الجسوم ولا من الحطام ؛ ثورة لا شأن لها بنظام قائم ولا بحكومة ولا بجيش ولا بأسطول ؛ ثورة منزهة عن السيف — والدفع ، وعن المديّة والخنجر ؛ ثورة لا يقوم بها جمهور من الناس ولا جماعات منهم ؛ بل ثورة فردية يشنها كل فرد منا على نفسه ؛ ثورة نفسية يتسلح فيها كل فرد منا بالارادة وبروح يهدم من أخلاقه ومن ميوله ومن نزاجته التي كونها فينا تاريخنا القديم ؛ ثورة تقتل فيها الارادة حبنا للسلامة وتواكلنا على الأقدار وصمتنا عن الحق والحق مهضوم مأكول ، كأنما قد أصبحنا جميعاً شياطين خرساً ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ؛ ثورة تحطم مُثُلنا الأخلاقية القديمة ، لتتبدل بها مُثُلًا عليا من تلك المثل التي قادت أوائلنا بجيوشهم ومدنيّتهم وعلومهم من شاطئ بحر الظلمات إلى جوف الصين

وكان صديقي يتكلم متهدج الصوت منفعل النفس تأثر الوجدان . فلما فرغ من حديثه ، شملنا صمت عميق ظل يسود مجلسنا حتى افترقنا لم يجر لساننا بكلمة واحدة

الظفرأى الشاعر

هو من أفذاذ الشعراء ، ومن أهل البيان الذين يشار إليهم بالبنان . أنكره أهل زمانه على القاعدة السائدة في هذه الدنيا . وليس في ذلك عجب ؛ ذلك بأن نكران الأفذاذ في زمانهم سنة أهل الشرق منذ أقدم عصورهم . وهذا الظفرأى على جلالة قدره — يقول :

مالي وللحاسدين ؟ لا برحت تذوّب أكبادهم وتنظفر
يقتابني عند غيبتى نفرٌ جباههم إن حضرت تنعفرُ
السنة في إساءتي ذُنُوقٌ يقتادها من مهايتي حصر
أناهم ملء الجفون إذا أناهم في الضاحج الأبر
يكفيهم ما بهم إذا نظروا إلى ملء العيون لا نظروا
تنظفهم رتبتي ويكدهم جاهي فصقوى عليهم كدّر

فنعمة الله وهي سابقة عندي من الحاسدين تنتصر
 يمجني أنهم إذا كثروا قَلُّوا غناء وإن هم كثروا
 وليس من عجب في أن يحقد جماعة على الطفرائي في زمانه ،
 وليس من عجب في أن يقول فيهم الطفرائي هذه الأبيات وأكثر
 منها مما يتضمن ديوانه . ولكن العجب في أن يُهمل الطفرائي في
 زماننا فلا يتناوله كاتب ينقد ولا يذكره أديب يبحث ، كأن هذا
 الشاعر العظيم من معطويات الأدب ، تلك التي تطوى فلا تنشر ،
 وتنسى فلا تذكر . ذلك في حين أن التأمل في شعر هذا الرجل
 الغذيرك فيه سرّاً قلما تقع عليه في غيره من الشعراء : لا في شعراء
 عصره ولا في الشعراء الذين تقدموه ، ولا في الشعراء الذين تلاوه .
 وعندى أن هذا السر لا يشاركه فيه إلا شاعر واحد هو أبو الملاء
 الممرى . أما ذلك السر فهو الجمع بين قوة الشاعرية ودقة الاحساس
 وصادق الوجدان وبين هدوء الطبع . أما إن ذلك سر من أسرار
 المظلمة في الطفرائي ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه سر عظمته ، فذلك
 بأن الشعر عاطفة وخيال وحركة نفسية جياشة دافقة سيالة ،
 فاذا حكم هذه الصفات هدوء نفس طبيعي ، صفا الشعر ورق
 وانساب أنساب الجدول المترقق الهادي ، ولكنه في تفرقه
 وهدوئه حاد كالسيف قاطع كالقاس الباترة المحدودة

وأبو الملاء الممرى إن شارك الطفرائي هذا السر ، فلا شك
 في أنه في نفسية الطفرائي أرس وأذهب في الوجدان . قال
 أبا الملاء شاعر حكيم بطبعه متشائم بقطرته . حمل على المرأة وطني
 على الإنسانية ، حتى لقد أراد أن يهدم كل قائم من غير أن يعرف
 كيف يقيم غيره ، وأن يدك كل أساس عملي في الحياة من غير
 أن يرسم للحياة طريقاً جديداً . ذلك على العكس من الطفرائي
 فإنه عاش مع المرأة واندفع في غمرات الحياة وشرب من أفويقها
 حلوة وسرة ، فكان من صميم أهل الدنيا . فاذا لازم أبا الملاء
 شيء من هدوء الطبع ظهر أثره في شعره فذلك طبيعي بمقتضى
 النشأة والاتجاه الفكري . أما أن يلزم الطفرائي ذلك الهدوء
 وتحكمه تلك الطمأنينة ، وهو بعد منمور في الحياة يحب لها هائم
 بمباهجها كمسح لمافها من مفرات ومفاتي ، فذلك سر من
 المظلمة لا تألفه في الشعراء

ولقد يظهر أثر هذا السر في مراثيه ، وهي أبعد الأشياء

عن أن يلزم فيها شاعر هدوء نفسه وطبعه فلا يقاب عليه خيال
 جاح إلى غايات من الشر يسبح من خلالها الشاعر في عالم من
 الخيال البعيد المعلق بأفاق الوم القصية . وله في الرثاء مقطوعة
 رثى بها عزيزة عليه ، تلج من خلالها مقدار ما لاقى في فراقها
 من لوعة عميقة الأثر بالغة الخطر ، ولكنك تلج فيها أيضاً ذلك
 الهدوء النفسى الذى يبلغ من قرارة نفسك مبلغاً لا تبلغه ثورة الشعر :
 ولم أنسها والموت يقبض كفها ويبسطها والعين ترنو وتطرق
 وفقد دمعت أجفانها فوق خدها جنى زجس فيه الندى يترقرق
 وحل من المقدور ما كنت أتقى وحلم من المحذور ما كنت أفرق
 وقيل فراق لا تلاق بعده ولا زاد إلا حسرة وتحرق
 فلو أنب نفسك قبل محنوم يومها

قضت حشرات كانت الروح تزحف
 هلال نوي من قبل أن تم نوره وغصن ذوى فيناه وهو موزق
 فواجباً أني أحرم اجتماعنا وياحرق من أين حل التفريق
 أحن إليها إن ترأخى مزارها وأبكي عليها إن تداني وأشقي
 وأبلس حتى ما أبين كأنما تدور في الأرض الفضاء وأصمق
 وألصقها طوراً بصدرى فأشتق وأمسحها حيناً بكفى فتنبق
 وما زرتها إلا توهمت أنها بشوي من وجدى بها تنمق
 وأحسبها والحجب بيني وبينها تمي من وراء التراب فتنتطق
 وأشمر قلبي اليأس عنها تصبرا فيرجع مرثياً به لا يمدق
 هذا شعر صادق الدلالة على الحقائق التي أحاطت بالشاعر
 وعلى الاحساسات التي اختلجت بها نفسه . قد تكون فيه لمحات
 من شعر الرثاء في شعر غيره من الشعراء ؛ ولكن فيه إلى جانب
 هذا سر جديد عليك . ذلك ما تدرك من هدوء هذه النفس
 الثائرة كأنما ترى أرضاً انبسطت ونما فوقها العشب وغشها
 الأزاهير ، وأنت تسمع من تحتها دوى البراكين ومهمة الزلازل
 تنل في باطنها

ولقد حاولت أن أطلق على هذه الظاهرة المعجبة في شعر
 الطفرائي اسماً أميزها به ، فلم أجداً اسماً أطلقه عليها أجدر بها من
 أن ندعو « الواقعية الشعرية » فإنها والحق يقال أقرب الأشياء
 فهما كما ندعو « الواقعية في الفلسفة » على أن المقارنة بين واقعية
 الشعر وواقعية الفلسفة يحتاج إلى فراغ ليس هذا مكانه ، أما إذا

حواء

ديوان شعر طريف في النزل العرفاني من نظم
الأستاذ الحوماني تحت الطبع ، تحمل الرسالة
منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره

رَبِّ حَوَاء!

رَبِّ حَوَاء! حين صوّرت حوًّا ءَـكُ هل كان قبلها تصويرٌ؟؟
والشعورَ اللاتي نشرتَ عليها هل طوى الليلَ قبلهن شعورٌ؟؟
والعيون اللاتي شقتَ لها هل كان من قبلها عيونٌ حورٌ؟؟
أَوهل بعدها يشع على الأحداق من عالم الملائك نورٌ؟؟
وَتُرِنَا ككثرتها وكمينيها السموات أعينٌ وثغورٌ؟؟
كبرت أن تكون قبلاً وبعداً والذي خصها بذلك كبيرٌ؟
هي بيت القصيد من شعرك المنظوم والكونُ شعرك المنثور

أنبئني

أنبئني عما يجول بعينيك وما لا يجول من أسرار
لا بعيني المألئ من النور أشرفت على كنهها ولا أفكاري
كلما فحّحت الحقيقة في أذني فنيّ أخذت للخيال الساري
وتسمنت ذرّة الأفق الأعلى إلى كل كوكب سيار
فأرتني عيناي أنك في آفاقها بعض هذه الأقار
وعلى الأرض بعض هذي الثمانيل من الناس أو من الأحجار
وأرتني عينك أنني والكور ن غريقان منك في تيار
الحرماني

أردت أن تقف على طرف مما ذكرت فاقراً له المقطوعة الآتية :
أقول لنسْغوي وهو من شجنى خلو

حنانيك قد أدبت كلي بانضو
تمالي أفاطحك المغموم لتعلمي بأنك مما تشكي كبدي خلو
تريدن مرعى الريف والبدو أبني وما يستوى الريف العراقي والبدو
هناك نسيم الريح مثلك لاغب ومثل ماء المزن مورده مسغو
ومحجوبة لو هبت الريح أرفقت إليها الفياري بالعوالي ولم يألوا
صبوت إليها وهي ممنوعة الجمي فختي م أصبو نحمون لاله نحمو
هو ي ليس يسلي القرب عنه ولا التوى

وشجو قديم ليس يشبهه شجو
فأسر ولا فك، ووجد ولا أسمى وسقم ولا برء، وسكر ولا صحو
عناء معنى وهو عندي راحة وسقم زعاف طمعه في في حلو
ولولا الهوى ما شافني لمح بارق ولا هدني شجو ولا هزني شدو
إن في هذا الشعر ثورة يخيم عليها هدوء نفسي قلما تأنسه
في شاعر غيره . وعندى أن هذه الصفة لم تتجلّ في شعر الطفراني
بقدر ما تجلت في لاميته المعروفة ، وإن لنا لعودة إليها لتحال فيها
هذا الشاعر الكبير على ضوء هذه الحقيقة الملموسة في شعره .
ولقد يحفزنا إلى درس الطفراني أنه شاعر فسيح الجوانب مديد
الغايات وفي شعره تعلق بأسباب الأدب العالي ، وما أحوجنا إلى
هذه الأسباب

اسماعيل رشيد

أطلب منكم
الاستاذ النشاشيبي
وكتاب
الاستاذ الصبيحي
من مكتبة الرشد، شارع الفلكي (باب الدرة)
من المكتبات العربية المنتشرة